أدين بمبدئه ؟

أم ماذا يراد بالاسلام ؟

(رد على مقال الدكتور زكي مبارك بعنوان: التصوف في الاسلام)

طالعتنا مجلة «المعرفة» الغراء بمقال أو بكلمة على الأصح بقلم الدكتور زكي مبارك في جزئها الرابع الصادر في شهر أغسطس سنة ١٩٣١ عنوانها « التصوف في الاسلام »

والتصوف هو من أهم المبادىء التي تبحث فيها المجلة بحثاً علمياً بعيداً عن التأثر بالآراء التي لا تقوم عليها الأدلة القاطعة ، وهذا ما عرفناه عن صاحبها الذي تخصص لدراسته .

لذلك ولما نعلمه عن الدكتور زكي مبارك من أنه لا يكتب عن هوى ولا يصدر إلا عن عقيدة، ولكثرة ماعالج في هذا الباب على الأخص كما يعلمه كل من اطلع على مؤلفه «الاخلاق عند الغزالي» فقد طالعنا كلمته بتلهف وشوق . فاذا به يقف بين الحيرة والتردد حتى أشكل علينا الأمر وكدنا نتهم أنفسنا بعقم الفهم .

ذلك بأنا وجدنا أنفسنا بين جملة متناقضات وأضداد . فمبدأ المجلة أو بعبارة أصرح مبدأ صاحب المجلة : لا يتفق وهذه الكلمة في كثير أو قليل، ولا يؤاخذنا صديقنا الفضال الأستاذ عبد العزيز افندي الاسلامبولي، إذا وجهنا نقداً له فنحن في سبيل البحث العلمي السليم ولسنا نقصد إعناته في شيء ، وإنما نأخذ عليه بحق محاباة صديقه الأستاذ الدكتور زكي مبارك ومجاملته في عدم التعليق على كلمته بشيء مطلقاً ، وقد كانت أولى بتصحيحها بقلمه لمخالفتها في أكثر من نقطة لما يعتقده . لذلك نكرر له أن لا يؤاخذنا إذا ما اتهمناه بالتواطؤ مع الدكتور في نشره تلك الكلمة بغير تعليق . وكفى بذلك جناية على العلم ومبدئه بنوع خاص .

إن المطلع على تلك الكلمة يدهشه جداً وجداً يدهشه (ولو كرد الدكتور استعارة ألفاظ أستاذه) أن يجدها بعيدة عن الاستقراء معكوسة النطق . وهل لا يدهش حقاً من يرى بعض النتائج تخالف مقدماتها ؟ ومن ؟ من الدكتور زكي مبارك !

إننا لا نغالي اذا ما قررنا بأن تلك الكلمة إن هي إلا مجموعة أفكار وآراء يناقض بعضها البعض، ويشكل بعضها البعض، وتنتهي « بلا شيء » ولا يؤاخذنا الدكتور في ركاكة التعبير فان حيرته وتردده شفيعان لنا في ذلك .

وهذا التناقض الغريب الذى لا ضابط له ، البعيد عن الاستقراء والمنطق ، هو ما نأخذه على الدكتور فى غير هوادة ولا لين .

لقد بدأ كلمته بقوله : « أكتب هذه الكلمة وأنا متردد حيران » وكيف للمتردد الحيران أن يظهر على جمهرة القراء بشىء يوثق به أو يركن اليه ؟ كفى بهذا الاستهلال هادما لكلمة الدكتور من ألفها إلى يائها . يقول بعد ذلك « لأنى مشفق على الاسلام من الافراط فى المقترحات »

ونحن نوافقه على شفقته ، ولكن هل من سبب أقوى فى تأخير المسلمين وإبعادهم عن روح الاسلام من كثرة المقترحات الدخيلة مثل ما أتانا به اليوم الدكتور زكى مبارك الذى يقرر « بأن التصوف ضرورى للاسلام كضرورة الكثلكة فى المسيحية؟» .

ويقول فى موضع آخر : « إن هذه الكلمة تخالف بعض الشىء ما جاء فى كتاب « الاخلاق عند الغزالى » من مهاجمة غلاة الصوفية . لاسيما وانى قررت بأن التصوف ليس فى جملته مما تدعو اليه الشريعة الاسلامية ، وإنما هو مزيج من عدة مذاهب هندية ، وفارسية ، ويونانية ، نقلت الى المسلمين وصادفت هوى فى نفوس الزاهدين منهم ، فوسموها باسم الدين ووضعوا لها على حسابه القواعد والأصول ، ثم قضيت بما نصه : ويمكن الحكم بأن ما فى التصوف من الدعوة إلى طهارة الباطن وحب الخير وبغض الشر وما إلى ذلك مما يتعلق بخلوص النفس البشرية من خبيث الصفات يرجع فى جوهره إلى روح الاسلام . أما ما يختص بقطع العلائق مع الناس والتزهيد فى الحياة فهو بعيد عن روح الدين ، لأن الاسلام دين فتح وسيطرة . وهو يعد معتنقيه لأن يكونوا سادة بخلاف التصوف فانه يلبس أصحابه روح العبيد » فماذا برى اليوم ؟ إنه يقول : « وأنا اليوم أعتقد أن التصوف ضرورى للاسلام . وقد صارحت محرر « المعرفة » بذلك فصاح : زكى مبارك يرد على زكى مبارك » ثم يقول بعد ذلك : « ويظهر أنه لم يكن يسرنى أن أنقض اليوم ما قررت بالأمس لهذا عدت الى كتاب « الأخلاق عند الغزالى » فرأيت أنى لم أسىء الى التصوف ، وإنما هاجمت الشعوذة التى يحيا بها الخمولون على حساب الدين . »

فكيف يسوغ قوله بأنه حينما عاد الى كتاب الأخلاق عند الغزالى لم ير أنه أساء فيه الى التصوف بينما قرر هناك « بأن الاسلام يعد معتنقيه لأن يكونوا سادة بخلاف التصوف فانه يلبس أصحابه روح العبيد » ؟

أليس فى هذا أكبر الاساءة إلى التصوف ؟ أليست هذه مغالطة فاحشة يؤلمنا أن نقرأها

يقم الدكتور زكى مبارك الذى قهر علماء الغرب فى موطنهم كما يزعمون ؟ وهل يتفق ذلك المبدأ الذى يلبس أصحابه روح العبيد مع ما يدعو اليه اليوم من أن التصوف ضرورى للاسلام كضرورة الكثلكة فى المسيحية ؟ . الاسلام الذى يعد معتنقيه لأن يكونوا سادة لا عبيد أذلاء ؟

لقد أسأت يا دكتور : إما إلى التصوف الذى تدعو اليه اليوم و إما إلى الاسلام. فأى الرأيين نأخذ عليك ؟ تلك مسألة نترك شرحها اليه حيث يقول « لقد شاع منذ أزمان بأن الاسلام دين ساذج بسيط تكفى فيه كلمة التوحيد . وأنا أرى اليوم أن بساطة الاسلام كما كانت سبب انتشاره، ستكون من أسباب ضعفه . وهذه حقيقة مؤلمة و إلى القارىء شرحها : لو تقدم اثنان من الدعاة فى أمة وثنية أحدهما يبشر بالاسلام الخالص و الآخر يبشر بالاسلام ممزوجاً بالتصوف، لكان الفوز للثانى بلا جدال . ذلك بأن المبشر بالاسلام الخالص يلقى كلمة التوحيد وطائفة من التعاليم المجردة ثم ينصرف . أما المبشر بالاسلام المتصوف فيضيف إلى العقيدة ألواناً كثيرة من التعاليم والعبادات تنتهى بجذب المهتدى إلى الدين الجديد وفى رأيى أن التصوف فى الاسلام يقوم بنفس المهمة التى تقوم بها الكثلكة فى المسيحية » يريد الدكتور أن يفهمنا بهذا المثل أن الدعوة إلى الشىء المركب أضمن فى النتيجة من الدعوة إلى الشىء البسيط وأن الدعوة إلى الاسلام ممزوجاً بالتصوف لابد آتية بجذب المدعو إلى الدين الجديد . فهل هذا صحيح ؟ وهو يعلم بأن التصوف دخيل على الاسلام منذ القرن الثالث الهجرى و يقرر فى شأنه «بأنه مجموعة مذاهب هندية وفارسية و يونانية»(١). فاذا كان التصوف ضروريا للاسلام كما يرى الدكتور اليوم فأين كانت تلك الفكرة من صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم الذى خاطبه ربه جل شانه بقوله « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » وقوله فى آية أخرى « إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء » لقد غفلت يا دكتور فى ذكر الدعوة المجردة عن قوله تعالى « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتى هى أحسن »

إن الله جلت حكمته أعلم بطبيعة البشر، فلم يطالبهم بأن يكونوا مؤمنين حقيقيين دفعة واحدة ، كما أنه حدد الدعوة الى ذلك الدين البسيط ، ولم يكلف صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم بأن يمزجها بالتصوف «وهو مجموعة مذاهب هندية وفارسية و يونانية» .

---

(١) يظن كثيرون أن المصادر التى أخذ منها التصوف الاسلامى ترجع الى تلك المصادر فحسب ، وقد نسوا أن للتصوف العربى أثراً جليا فى الموضوع ، وقد كتبنا عنه وسنعود الى نشره فى العدد المقبل.

المحرر

والدكتور يعلم أن واضعي تلك المبادىء ممن ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً . يتبين ذلك من قول الله تعالى « قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ، ولما يدخل الايمان في قلوبكم . وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً ، إن الله غفور رحيم »

هل يستطيع أن نأخذ على الدكتور بأنه كان من الواجب عليه قبل أن يفجئنا بكلمته أن يرجع إلى القرآن فيتدبره ليكون خيرا له من رجوعه إلى كتاب « الأخلاق عند الغزالي » ووقوعه في تلك المتناقضات التي لا حد لها ؟

ألا يوافقنا الدكتور على أن المطلع على قوله « وأنا أرى اليوم أن التصوف ضروري للاسلام كضرورة الكثلكة للمسيحية يستشعر نقصاً في الاسلام جاء الدكتور يتممه في القرن الرابع عشر الهجري ؟ ألم يعلم بأن الله تعالى قال في محكم آياته « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً » وقوله « ما فرطنا في الكتاب من شيء » أرشدنا أرشدك الله إلى ما تدعو اليه صراحة واشرح لنا موقف الكثلكة من المسيحية وما تقوم به . حتى نستطيع أن نتبين رأيك وحتى لا تكون سبباً بشقشقتك المزعومة وحنانك الموهوم في إبعادنا عن روح الدين البسيط وهداه « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة »

إننا لا نتهمك في دينك أو عقيدتك . ونحن نعلم أنك كتبت ما كتبت عن عقيدة كما ذكرت لنا . ولكننا من ناحية أخرى نعترف لك بأنك كنت غير موفق في إظهار عقيدتك الى ما تدعو اليه . وهذا ما أوقعنا في حيرتك وترددك .

وبعد فانا نسر اليك بكلمة في غير محاباة أو مجاملة : إذا كنت تقصد بكلمتك هذه فريقا من الناس ، أو تبغي علواً في الأرض ، فلك شأنك . على شرط أن لا يكون على حساب الدين . والله من ورائك محيط !!

فاضل حسن مسعود

« المعرفة » لقد نشرنا رد حضرة الفاضل عملا بحرية الرأي التي تنادي بها ونعمل على احترامها ما استطعنا الى ذلك سبيلا . وما أظنني كنت في حاجة الرد على الدكتور زكي مبارك في كلمته بعد أن اعترف في أولها بأنه « متردد حيران » ولست ممن يودون استغلال موقف حيرة وتردد كهذا . وقد كتبت في هذا الموضوع كثيرا من المقالات التي لا أرى مبررا لاعادة نشرها إلا لضرورة قصوى .